مع هذا الانتماء القومي للفلسطينيين ، فان هؤلاء واجهوا في مطلع القرن العشرين **وضعا خاصا** تمثل في التحديات التي تفتتها الحركة الصهيونية في اوجههم . ذلك ان الهجرة والاستيطان الصيونيين طرحا امام الفلسطينيين مهمات متميزة من مهمات الحركات العربية السياسية التي كانت تتفاعل آنذاك . وقد كانت الاخطار الناجمة عن العدوان الصهيوني قبل الحرب الاولى في صدد احياء شعور وطني متميز اتخذ له محورا الدعوة الى تركيز **الهوية الفلسطينية** شعبا ووطنا . ولم يكن هذا الشعور مخلوقا من عدم ، وانما كانت مكوناته الاساسية معطيات التاريخ العربي الذي احتفظ باسم فلسطين واورثه لأجيال عربية متلاحقة . وكانت وظيفة الخطر الصهيوني في هذا المجال هي انه استحث ظهور هذا الارث وخلق مبررات بعثه . وكانت ارهاصات الهوية الفلسطينية هنا تشير الى بداية تشكل وعي على الذات الوطنية وعلى وحدة الشعب ، بحيث اخذ مفهوما «الشعب» و «الوطن» يدخلان المصطلح السياسي الفلسطيني بشكل واضح في السنوات القليلة التي سبقت الحرب العالمية الاولى . وكان ابرز رموز هذا التيار نجيب نصار في جريدته « الكرمل » كذلك فاننا لا نقلل من اهمية الجمعيات الفلسطينية التي تكاثرت في العام ١٩١٣ والتي كانت تستحث هم الفلسطينيين للتصدي للاخطار المحدقة بهم .

والسؤال الذي يطرح هنا هو : اين موقع شرق الاردن في هذا التيار الفلسطيني ؟ هناك عدد من العوامل تحكم الاجابة عن هذا السؤال :

العامل الاول ان شرق الاردن كانت قبل الحرب، ولزمن طويل مضى ، منطقة ركود سياسي مما يجعل التعرف على اتجاهات سكانها السياسية امرا متعذرا ان لم يكن مستحيلا . ويكفي ان نذكر هنا انه من بين ٦١ اسما اوردها المؤرخون لاعضاء « الفتاة » لم يرد اسم واحد من شرق الاردن ، على الرغم من ان الأسماء تتوزع بين مدن بيروت ودمشق وصيدا ونابلس وحيفا وبغداد وبعلبك واللاذقية والقدس وغزة وطولكرم وحلب وحمص .

العامل الثاني انه حتى وقت متأخر من الحكم العثماني كانت اجزاء رئيسية من بلاد شرق الاردن تتبع داريا لمدن فلسطينية غربي النهر . فالبلقاء التي تقع بين نهر الزرقاء والموجب كانت اداريا تابعة للواء نابلس ، كما ان متصرف نابلس ( واحيانا متصرف القدس ) كان مسؤولا عن جباية الاموال الاميرية من المناطق الواقعة جنوبا حتى الكرك . كذلك ففي بعض الفترات التاريخية كانت اجزاء من منطقة عجلون تابعة لقائمقامية طبريا .

العامل الثالث ان عددا كبيرا من العشائر في مناطق شرق الاردن قدمت من فلسطين ( غربي النهر ) في فترات مختلفة في اثناء العهد العثماني . ونستطيع في هذا المجال ان نعدد اكثر من خمسين عشيرة قدمت من هناك وتوزعت في مناطق مختلفة في شرق الاردن من الشمال الى الجنوب .

في ضوء هذه العوامل هناك عدد من الدلائل تشير الى ان الفلسطينيين ( غربي النهر ) كانوا يعتبرون شرق الاردن جزءا من بلادهم. من ذلك مثلا — بجانب دلائل اخرى — ان خليل السكاكيني ، الكاتب الفلسطيني ، كان يستعمل في العام ١٩١٣ اصطلاح فلسطين ليشمل الأراضي الواقعة الى الشرق من نهر الاردن .

كانت الحرب العالمية الاولى ، بنتائجها ، حاسمة في المسائل الكيانية ، اذ قسمت الوطن العربي الواحد — هو واحد على الرغم من تقسيماته الادارية في العهد العثماني — الى عدد من الكيانات ، قاومها عرب فلسطين ( الانتدابية هنا ) مقاومة ستظل رصيدا لهم في نضالهم القومي . فمن الجدير بالذكر ان اول عمل قامت به الجمعيات الاسلامية — المسيحية التي قادت النضال الفلسطيني في بداية الاحتلال البريطاني ، كان اعلانها « اننا لا نتخلى عن مطالبنا المنحصرة في استقلال سوريا المتحدة من طوروس الى رفح ونرفض الهجرة الصهيونية رفضا باتا ، ونرفض فصل فلسطين عن سوريا » . كذلك نشير الى ان المؤتمر الفلسطيني الاول الذي انعقد في القدس بين ١/٢٧ و ١٩١٩/٢/١٠ كان دلالة واضحة على هذا الاتجاه . فقد حاول الانجليز ان يصرفوا المؤتمر عن قرار الوحدة السورية وان يقنعوه بطلب استقلال فلسطين باشراف بريطانيا ، غير ان المسعى فشل ، وقرر المؤتمر اطلاق اسم سوريا الجنوبية على فلسطين .

بيد ان الظروف السياسية التي احاطت بالمنطقة والتي كانت اقسى من طموحات الفلسطينيين في الوحدة السورية، جعلت فلسطين بحدودها الانتدابية